الأدب في سير العظماء :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للاســـتاذ محمود الخفيف

— ٢٣ —

البرسبتيريز والصورة الثانية :

ويضرب ملتن لقومه مثلا لما يقع من الضر إذا اختنقت حرية الرأى فيستعيد ذكرياته عن رحلته فى إيطاليا ويذكر كيف عده المثقفون هناك سميداً بمولده فى انجلترة موطن الفلسفة الحرة إذ كانوا يظهرونه على تألمهم وحسرتهم لما تعانى المعرفة عندهم من تعسف وإعنات وقيد ؛ ويقول ملتن إن ما يعانيه طلاب المعرفة هناك من قيود هو سبب ما اكتنف مجد أولى الذكاء من الإيطاليين من ضباب ، وإلى تلك القيود يعزى مَلَقُ الإيطاليين وإدعاءاتهم وهما خلتان بارزتان فى أكثر ما يكتبون ...

ويشير ملتن فى فقرة قوية بالغة الأثر فى النفوس إلى ضحية من ضحايا الحرية وذلك هو جليليو الذى جاهد طويلا ليكشف عن الأبصار ما حجب عنها النور من غشاوة ، ويزيح عن القلوب ما طمس عليها من خرافة وجهل ، فكان جزاؤه السجن والمهانة وقد تحطم هيكله الذى آده العبء كما آدته السنون وذهب بصره فأحاطت به الظلمة وهو الذى طالما صبر على أذى قومه وصابرهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

ولن يزال ملتن عظيم الثقة فى انجلترة ، يقدرها حق قدرها ويراها خير أمة منذ قام العالم ، فهى أمة ذكية بصيرة حازمة ، ذات روح وثابة سريعة إلى ما تريد ، لن تتخاذل عن أقصى ما تصل إليه القدرة البشرية ، عريقة فى المعرفة على اختلاف فروعها حتى ليمكن القول إن مدرسة ڤيثاغورس والحكمة الفارسية القديمة إنما استمدتا بدايتهما من انجلترة ؛ ولها فى الدين وما هو من بابه من المعرفة ، باع طويلة وقدم راسخة ، فلولا ما كان من مقاومة بعض القساوسة لوكليف [1] ونظرتهم إليه كصاحب بدعة وداعية شقاق لما سمع أحد عن لوثر أوكالفن نفسيهما ، ولن تزال انجلترة مبعث كل دعوة إلى الإصلاح ومنار كل نهضة تقوم فى القارة ، وسيبقى لها فخر إصلاح جيرانها غير منتقص ذلك الفخر أبداً ... وقد تأذن الله لكنيستها بعصر جديد عظيم سوف تصلح فيه الإصلاح نفسه ، وكان أن تجلى الله لعباده وبدأ كما هو شأنه بالإنجليز منهم ...

ولئن عظم أمله فى انجلترة وما يرجى فيها من خير ، فإنه يوجس خيفة من التنكر للحرية كما فعل البرسبتيريز ، ولذلك فإنه يراهم شراً أى شر ، فما يحجب نور هذا الأمل عن البلاد إلا عنادهم واجتزاؤهم على فعل ما كرهوه من قبل مما فعل القساوسة .

ويغلظ ملتن لهم القول ويعنف عليهم كما صنع بالقساوسة فيرميهم بالنفاق والجشع ، فما يأتى الإخلاص لقوم يكرهون الحرية ويعترضون لها وما عبادته إلا حرفة احترفوها وتجارة يخشون كسادها ثم يتنبأ فى آخر كتيبه بأن سوف يلقى الباطشون من يبطش بهم ، ولعله بذلك يستخرج من مجرى الحوادث السياسية أن المستبدين سوف يعملون على سحق سلطة البرسبتيريز بعد أن يفرغوا من محاربة الملك ولقد جاءت الحوادث بعد ذلك محققة ما لمح به .

وكرهت رجعة البرسبتيريز كما يزعم إليه كل القائمين على شؤون الدين ، ولا عبرة بالمذهب ، وقر فى نفسه أن حرية الفكر والرأى مستحيلة ما دام هؤلاء قوامون على الناس ، وعنده أن تعصب القساوسة إنما يظهر فى صور وأشكال جديدة ؛ وما دام الأمر كذلك فلا إصلاح يرتجى ؛ إذ كيف يتحقق الإصلاح بغير الوصول إلى الحق ، ولا سبيل إلى الحق إلا الحرية ويريدها تحرير العقل من الجهالات والضلالات ليفكر طليقاً ويتدبر فيما جاء به المسيح غير مقيد بقيد مهما كان نوعه أو كان مبلغه من الشدة أو

(١) مصلح دينى من القساوسة فى القرن الرابع عشر حارب العيوب القائمة حوله وترجم العهد الجديد .

الضعف ؛ وإذاً فالفكر الحر والرأى الحر هما سبيلا الإصلاح الحق ولا سبيل غيرهما .

لقد جاء المسيح بالهدى والحق إلى هذه الدنيا ، وذلك مبين في الإنجيل ، ولكن الناس بعيدون عما بين لهم من الهدى لأنهم أخذوا أخطاء المفسرين على أنها الحق المقدس وفى ذلك أبلغ الضرر ؛ ولا مخرج لهم إلا أن يناقشوا المسائل التى يحيط بها الشك مناقشة لا قيد فيها حتى يهتدوا إلى الصواب ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا أن تتاح لهم الحرية ، فكأن الذين يخنقون الحرية إنما يحولون بين الناس وبين ما آتاهم المسيح من الهدى وأى إثم هو أكبر من هذا الإثم ؛ وكيف يطمع المصلحون فى الإصلاح إلا أن يكفوا أيدى هؤلاء البرسبتيريز الذين يصدونهم عن سبيله ويزعمون أنهم هم المصلحون ...

بهذا المنطق القوى أزعج ملتن البرسبتيريز ، فثل هذا الكلام يكون أشد وقعاً وأعظم أثراً من الهجاء مهما أقذع ، ولذلك كانت هذه الحرب أقوى من حربه على القساوسة وإن بدت أقل منها ضجيجاً لأن سلاحه فيها كان أمضى ولأنه يقاتل فى سبيل مبدأ تميل إليه بطبيعها النفوس ...

تلك هى خلاصة الأيروپاچيتيكا ؛ ويزعم بعض النقاد وأحسبهم على حق فيما يزعمون أنه لو لم يكن ملتن صاحب الفردوس المفقود وصاحب كومس والفردوس المستعاد وغيرها من الشعر لذهبت كتاباته النثرية مع الزمن إلا هذا الكتيب الذى جعله للدفاع عن مبدأ من أجل المبادىء فى حياة بنى الدنيا منذ أقدم عصورها ألا وهو حرية العقل لا فى تفكيره فحسب فإن ذلك طوع كل فرد ذكى بل فى إعلان ما يرى من رأى .

ويحبب هذا الكتيب إلى النفوس فضلا عما يدافع عنه من مبدأ فيه ، ما ساقه ملتن من أمثلة وما لجأ إليه من الإشارات والتلميحات كما يفعل فى شعره ، وكان التاريخ هنا هو الكنز الذى استخرج منه أصدافه ولآلئه ، وحسبك أن يلمح إلى سقراط واستشهاده وإلى جليليو وما لاقى من كوارث وإلى أفلاطون وبيكون وإرزس وسبنسر الذى وصفه بقوله « شاعرنا الحكيم الوقور » ، وأضرابهم ممن اهتدوا بنور العقل فى ظلمات الجهل فكانوا على طريق الإنسانية مصابيح تنطوى القرون ونورهم أبلج وكلما اشتدت الظلمة ازدادوا ظهوراً كوكب السماء ونوراً ...

وحسبك أن يشير إلى أثينا وأن يمتدح فيها النشاط العقلى وأن يشيد بما كان يعلم آباء المسيحة الأولون من علوم الأقدمين ؛ إلى كثير من أمثال ذلك مما يسوقه براهين على فضل العقل ، فى العقل وحده الخلاص من نير الجهل مع شرف القصد والإخلاص فى استجلاء الحق لا فى الخضوع لكل منقول والتسليم به فى غير تدبر فيه ...

وهو فيما يسوقه من هذه الأمثلة إنما يعرض بالبرسبتيريز الذين أنكروا منه ما اهتدى إليه بعقله فى أمر الطلاق والذين هالهم منه تأويل ما أول من عبارات الإنجيل لتتمشى مع ما ذهب إليه من رأى أو الذين رموه بالفسوق لأنه طلب تحكيم الضمير والاستعانة بالعقل فيما يلتبس فيه الأمر من أحكام الإنجيل ولا يتفق فى ظاهره مع طبائع الأشياء .

والحق أن ملتن خليق بأن يثير إعجاب الناس به جيلا بعد جيل ، فقد كان لشخصه من الجلال ولروحه من القوة ولنفسه من العزة ما لا يتوفر مثله إلا للأفذاذ القليلين على فترات من الزمن ؛ ولا نجد فيما تحدث عنه المؤرخون خيراً من حديث مكولى عن خلقه فلنأت به على سرده . قال مكولى « وبقى بعد ذلك أن نتحدث عن المعين الذى استمد منه خلق ملتن العام عظمته وروعته الخاصة به ، فلئن كان قد أتعب نفسه ليقضى على ملك جائر[1] أو سلطة كهنوتية ظالمة ، فإنما فعل ذلك مشتركا مع غيره من الناس .

ولكن مجد المعركة التى خاض غمارها من أجل ذلك الضرب من الحرية الذى هو أعظم ضروبها قيمة ، وإن كان أقلها حظاً يومئذ من إدراك الناس ، وأعنى به حرية العقل البشرى كان بأجمعه مجده وحده ...

لقد رفع الألوف من معاصريه وعشرات الألوف منهم أصواتهم ساخطين على ضرائب السفن وعلى محكمة غرفة النجم ، ولكن لم يفطن إلا قليل منهم إلى ما يعد شره أعظم من ذلك هولا ألا وهو الرق العقلى والخلقى ، ولا إلى ما عسى أن يعود من

(١) سيأتى بيان ذلك عند الكلام على الجانب السياسى من حياته .

خير على الإنسانية من وراء حرية النشر ، ومن وراء الحكم الشخصي على الأشياء يجرى به الرأى غير مقيد بقيد ؛ هذه هى الأغراض التى رأى ملتن أنها بحق أعظم الأغراض خطراً ، وكان تواقاً إلى أن يرى الناس يفكرون لأنفسهم كما أنهم يشرعون الضرائب لأنفسهم ، وأن يتحرروا من سلطان الهوى ، كما قد تحرروا من سلطان «شارل» ، وكان يعلم أن الذين اعتلوا صنوف الإصلاح هذه ونفوسهم تنطوى على أحسن المقاصد ، وقنعوا باسقاط الملك وإلقاء الملكيين الطاغين فى السجن ، إنما سلكوا مسلك الأخوين الغافلين فى قصيدته اللذين ألهاهما فرط حرصهما على تفريق الساحر وقبيله فأهملا وسائل تحرير أسيره ، لقد فكروا فى هزيمته فقط فى حين كان ينبغى أن يفكرا فى حل ما عقد من طلاسم السحر : « لقد أخطأتما ، فإنه كان ينبغى أن تختطفا عصاه وتشدا وثاقه ، وذلك أننا وقد فاتنا أن نقلب العصا رأساً إلى عقب ونقرأ فى اتجاه عكسى كلمات الساحر ذات القوة التى تفكك الأوصال ، لن نستطيع أن نطلق سراح هذه السيدة التى تجلس هنا مغلولة بأغلال شديدة ، فهى فى مكانها ثابتة لا تتحرك »[1]

وكان العمل على أن تقلب العصا ، وأن تقرأ كلمات السحر فى عكس اتجاهها ، وأن تفكك القيود التى تشد الشعب الأبله إلى مقعد السحر ، كل أولئك كان ما يسعى إليه ملتن من غرض نبيل ، وإلى هذا الغرض وجه مسلكه فيما يتصل بالناس كله ، فمن أجله انضم إلى البرسبتيريز ومن أجله اعتزلهم ، ولقد خاض معركتهم المحفوفة بالمخاطر ، ولكنه نأى بجانبه عنهم مشمئزاً ساعة انتصارهم الوقح ، ورأى أنهم كانوا كمن هزموهم لحرية الرأى أعداء ، ومن ثم فقد انضم إلى المستقلين ودعا كرمول[2] أن يحطم ما نسب إلى الدين من علل وأن يخلص الضمير الحر من مخلبى الذئب البرسبتيرى ؛ وهاجم ملتن وهذا الغرض النبيل نصب عينيه قانون الطبع والرقابة فى مقال رفيع الطراز[3] يجدر بكل سياسى أن يلبسه كشعار فوق يده وكذؤابة بين عينيه ؛ وكانت لا توجه هجماته بوجه عام إلى المساوىء الخاصة بقدر ما كانت توجه إلى تلك الأخطاء المتأصلة التى تكاد تبنى على أسسها جميع الأخطاء ألا وهى العبارة الخانعة لذوى المكانة من الناس ، والخوف الذى هو ليس من العقل فى شىء من كل تحديد .

ولكى يزلزل أسس هذه النوازع المذلة زلزالا أشد وأوفى بالغرض ، كان يختار ملتن لنفسه دائماً مما يبذل من الخدمات الأدبية أدعاها إلى الشجاعة والجرأة ولم يكن يأتى قط فى المؤخرة بعد أن تنقص الأيدى من الجهود الخارجية وتنفذ الجنود من الثغرة ، وإنما كان يدفع بنفسه المقدمة إلى ما تتخاذل دونه الآمال.

ففى بداية ما حدث من أوجه التغيير ، أخذ يكتب بكل ما فى وسعه من نشاط وفصاحه لا يجاريه أحد فيهما منددا بالقساوسة ، فلما بدا له أن آراءه قد تم لها الغلبة تجاوزها إلى موضوعات أخرى ، وترك القساوسة إلى طائفة كبيرة العدد من الكتاب أسرعت بعده إلى التهجم على تلك الفئة التى تهوى ...

وليس ثمة من عمل أشد خطراً من الاضطلاع بحمل مشعل الحقيقة إلى المجاهل الموبوءة التى لم يضىء فيها نور قط ولكن ملتن كان يختار لنفسه دائما أن يقتحم ذلك الضباب الصاخب ، وكان يسره ذلك الاختيار كما كان يسره أن يركب الأخطار فى ذلك الاكتشاف الذى يبعث الرعب ؛ ويجب على أشد الناس إنكاراً لآرائه أن يحيطوا بالتوقير ما لاقاه فى سبيل استمساكه بها من عنت وشدة ، ولقد ترك لغيره فى الجملة العمل على شرح الجوانب المقبولة من عقيدته الدينية والسياسية والدفاع عنها ؛ أما هو فقد جعل من نصيبه أن يؤيد العقائد التى رأى جمهور مواطنيه أنها آثمة والتى سخروا منها لأنهم زعموا أنها متناقضة ، فقد ذاد عن حق إباحة الطلاق وأيد إعدام الملك وهاجم نظام التعليم السائد فى أيامه[1] وإن عمل الخير الذى يشع النور ليشبه فى آلهة الخرافة عمل إله الضوء والخصب »

والحق أن الدفاع عن الحرية كان هدفه فى معظم ما كتب ، فقد دافع عن الحرية الدينية بحربه على القساوسة وعن حرية النشر

(١) راجع غنائية كومس وهذه العبارة من كلام الروح الحارس للاخوين .

(٢) سيأتى بيان ذلك عند الكلام على مطوعته الشعرية التى وجهها إلى كرمول سنة ١٦٥٢ .

(٣) يقصد به مقال الأيروباجيتيكا .

(١) انظر الفصل التالى

بحملته على الرقابة ، وعن حرية الضمير بالطعن على البرسبتيريز وعن حرية الأسرة بإنكار ما ينطوى عليه قانون الزواج من استبداد أو عن الحرية المدنية كما سنفصله فى حينه بإعلانه السخط على طغيان التاج ...

ولكن بعض النقاد يردون ذلك إلى دوافع شخصية محاولين بذلك أن يبخسوه أعماله ، فيقولون إنه هاجم القساوسة لأنهم أبعدوه عن الكنيسة ، ويدافع عن حق إباحة الطلاق لما صادف فى زواجه من خيبة ، ويغضب على البرسبتيريز وينعتهم بضيق العقل لأنهم لم يقروه على ما ذهب إليه فى أمر الطلاق ويدعو إلى حرية النشر لأنهم أرادوا أن يخنقوا كتبه ...

وليس فى وسعنا أن ننكر تلك الدوافع الشخصية التى يشير إليها هؤلاء النقاد ، فإن شدة شعور ملتن بذاته من أبرز مقومات شخصيته منذ نشأته وأكثر تصرفاته إنما تم بدافع من ذلك الشعور ، ما فى ذلك ريب ، ولكنا لا نفهم كيف ينتقص ذلك من قدره وكيف يعد عليه ولا يعد له ؟

هذا رجل يرى حياته وحياة غيره بالضرورة محفوفة بقيود من القانون والعرف ، فيأبى على القيد ويثور لا يريد أن يهدأ حتى يقضى على ما استرق الناس من عباداتهم ومما جرى به العرف بينهم ومما وضعت القوانين من الأغلال فى أعناقهم ، فماذا يدل عليه ذلك إن لم يدل على شخصية قوية ونفس أبية وضمير حر ؟

وهل جاهد ما جاهد فى غير عدو ؟ ألم يكن على حق فيما أنكر من عيوب عصره ؟ إن كانت تلك العيوب قائمة حقاً فلا يمكن أن يقال إن أهواءه ومطالب نفسه هى التى سيطرت على فكره ؛ فلا يبقى إلا أن دوافع شخصية حركته وهذا إنما يدل على أنه أحس قبل أن يحس غيره بضرورة الإصلاح ، وأن الوضع الاجتماعى فى كماله المنشود إنما يقاس مبلغ كماله بمقدار ما فيه مما يشاكل كمال نفسه وتلك غاية تتخاذل دونها الغايات .

وهل كان يستطيع أن يغمض العين غير مساوىء عصره لو لم تحركه دوافع شخصية إلى استنكارها ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد أن يقوله ، ولا هو مما يجوز فى عقل عاقل إلا على أوزاع الناس والهمج منهم ، ولقد كان ذلك الشاعر القوى الروح العظيم الثقافة مطبوعا على حب الحرية وعلى الجهر بما يؤمن أنه الحق ، ومن أجل ذلك كانت نفسه ثورة متصلة الحلقات منذ أن عصى أباه وهو صغير إذ أراد أن يسلكه فى سلك الدين بألحاقه بالكنيسة وأبى إلا أن يهب للشعر نفسه ، ومنذ أن كان يتأبى على قيود عرفية فى الجامعة وينكر على الجامدين فيها جمودهم ، إلى أن جاهر الإيطاليين بمخالفته إياهم فى فطرتهم الدينية على الرغم مما حذر به وليسوا قومه ، إلى أن أذن القساوسة فى وطنه بحرب منه ، كل أولئك لأن نفسه تأبى إقرار الباطل ولا ترضى بغير الحق ...

ولا يسع كل منصف إلا القول بأن ما يشير إليه بعض الناس من دوافع شخصية إنما هو دليل على سلامة عنصره ونبل نفسه وسمو روحه .

(يتبع) الخفيف

الأستاذ صلاح الدين النجار يقدم :

الظرفاء والشـــحاذون فى العصر العباسي

وهو كتاب طريف لطيف ممتع

لا تستطيع أن تتركه حتى تقرأه كله

وقد طبع فى « مطبعة الرسالة » طبعا متقنا

يطلب من دار « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٢ قرشا غير أجرة البريد